مع ثلاثة رفاق عمر من رواد العمل في المسرح
جلال خوري ويعقوب شدراوي وأسامة العارف

اتذكر هؤلاء الثلاثة من رفاق العمر بكثير من الاعتزاز والحنين والاكبار. وكان تعرفي إلى كل منهم مختلفاً في الشروط التاريخية. وكان الأول من بينهم الذي تعرفت إليه جلال خوري. وقبل أن أتعرف إليه شخصياً تعرفت إلى والده الذي كان يمارس مهنة الخياطة للنساء الأرستقراطيات في لبنان. تعرفت إليه عندما زرته للقاء شقيقي مرتضى الذي عمل معه لفترة قصيرة. وقد أعجبتني في شخصيته إلى جانب مهنته وطنيته وشيوعيته. وكانت زوجته والدة جلال إحدى الشخصيات المرموقة في لجنة حقوق المرأة.

كان لقائي الأول مع جلال في مقهى يقع بالقرب من سينما دنيا في ساحة البرج. وهو المقهى الذي كان يلتقي فيه المثقفون من اتجاهات مختلفة في الميادين الثقافية وفي السياسة بشكل عام. وكان من بين الذين التقيت بهم إلى جانب جلال كل من الفنان التشكيلي بول غيراغوسيان والشاعر صلاح ستيتية وآخرون لم أعد أذكر أسماءهم. وكان رفيقي الدائم في تلك اللقاءات عدنان معلوف ذلك الإنسان الرائع الذي فاجأني في مطالع الستينات في قراره القاطع والحازم بالإنتحار من دون أن أتمكن من ردعه عن الانتحار.

لكن الحديث عن جلال خوري أحد رواد المسرح اللبناني الكبار على امتداد حياته منذ الخمسينات والستينات يتطلب الجهد في الدخول في تفاصيل سيرته الفنية. لكنني لن أدخل هنا في تلك التفاصيل وسأعود للقيام بتلك المهمة في وقت لاحق. إلا أنني لا أستطيع وأنا أتذكّر هذا المسرحي الرائد إلا أن أشير إلى بعض مسرحياته التي تشكل اليوم نماذج رائعة من العمل المسرحي اللبناني الحديث. وأكتفي هنا باثنتين من تلك المسرحيات على اختلاف ما بينهما مما اقترن بسيرة جلال المسرحية. المسرحية الأولى هي "الرفيق سجعان". وهي من أروع وأجمل ما حاول فيها جلال أن يعبّر عن السمات التي ارتبطت بها حياة القرى وحياة أهاليها، بما في ذلك في الانتماء السياسي مقرونا بالانتماء العائلي لا سيما عند الشيوعيين. أما المسرحية الثانية فهي التي اقتبسها من المسرحي الألماني الكبير برتولد برخت. وهي مسرحية أرتيرو أوي التي حرص فيها برخت على إدانة الدكتاتورية بشخص هتلر والتي أعطاها جلال في عمله صفة لبنانية تتصل بالواقع اللبناني.

وهكذا جمع ببراعة المسرحي الكبير بين ما أراد أن يعبّر عنه برخت وما يعبّر عنه هو من دون الخلل في السياق المسرحي المرتبط بالمسرحية ذاتها.

تلك هي بعض ذكرياتي عن جلال خوري كرائد مسرحي وكمثقف شيوعي.

الرائد المسرحي الثاني الشيوعي هو يعقوب شدراوي. وهو في عمله وفي أسلوبه المسرحي مختلف عن جلال خوري. وهذا أمر طبيعي. فلكل من رواد المسرح اللبناني وهم كثر شخصيته ومدرسته في العمل المسرحي. تميّز يعقوب بإعداد نصوص مسرحية مهمة لم يستطع أن يقدمها جميعها على المسرح. وأهمها بالنسبة إليّ مسرحيته عن طانيوس شاهين. وبعض تلك النصوص المسرحية ليعقوب تحتل مكانها في أرشيفي. ويؤلمني هنا وأنا أتذكر يعقوب أنني لم أفلح في إقناع عائلته بأن نصدر كتاباً عنه بعد وفاته يتضمن بعض نصوص مسرحياته وبعض الشهادات التي تقيّمه ككاتب مسرحي وكمخرج وممثل في الآن ذاته.

كثيرة هي مسرحيات يعقوب. ولعل من أهمها مسرحية "إعرب ما يلي". ومن طرائف ما يتصل بيعقوب أنه عندما أراد التفرغ في الجامعة اللبنانية وهو خريج إحدى الجامعات السوفياتية المهمة جرى اعتراض عليه لأن السنوات التي قضاها في جامعته التي تخرج منها كانت ناقصة عدد من الساعات التي من دون اكتمالها فقد يعقوب حقه في التفرغ في الجامعة. اتصلت يومها بصديقي رئيس الجامعة جورج طعمة ونائبه صديقي الآخر ميشال عاصي لتسهيل مهمة تفرغ يعقوب فأجاباني بأنه أمر مستحيل، وأن عليه أن يعود إلى موسكو لاستكمال تلك الساعات الضرورية التي يقتضيها التفرغ. وهكذا كان. فذهب يعقوب إلى موسكو وقضى عاماً كاملاً في الجامعة وعاد حاملاً معه الشروط التي تسهل له مهمة التفرغ في الجامعة. وكانت في ذلك الحين قد صدرت من طلاب المسرح في الجامعة اللبنانية كتابات ورسائل جامعية حول مسرح يعقوب الشدراوي.

تعرفت إلى يعقوب عندما كان في الاتحاد السوفياتي مرسلاً من قبل الحزب الشيوعي اللبناني للدراسة الجامعية في المسرح. ثمّ توطدت علاقتي معه بعد عودته من موسكو. وهي علاقة شملت جميع جوانب الحياة. ويتميّز يعقوب بصفات تقرّبه من الآخرين، صفات الإنسان الطبيعي المتواضع رغم غنى ثقافته، ليس في المسرح وحسب بل في جميع ميادين المعرفة. وظللت إلى جانبه في مراحل حياته حتى آخر أيام عمره.

ذلك هو باختصار يعقوب الشدرواي كاتباً مسرحياً ومخرجاً وممثلاً وإنساناً رائعاً. وما زلت عند موقفي في العمل ذات يوم على إصدار كتاب عنه يضم بعض أعماله وبعضاً من سيرته كإنسان وكرائد مسرحي.

يبقى أن اتوقف عند أسامة العارف. فأسامة هو بالنسبة إليّ قبل كل شيء إنسان يتميّز بصفات وسمات قلّ مثيلها. أقول ذلك من دون أية مبالغة. فقد تعرّفت إليه في أواخر ستينات القرن الماضي عندما كان لا يزال طالباً. وتعرّفت بواسطته إلى والده القانوني المعروف عارف العارف ذلك الإنسان الرائع. لكن الصداقة التي ربطتني بأسامة بدأت في مطالع سبعينات القرن الماضي. وكانت صداقة متنوعة ومتعددة في مجالاتها وفي ميادينها. وجدير بالذكر أن أسامة عندما تخرج من الجامعة محامياً لم يكتف بمهنة المحاماة بل أضاف إليها مهمة ثقافية متعددة ميادينها. وقبل أن أتوقف عند عمله المسرحي أود أن أشير إلى بعض النشاطات المشتركة التي قمنا بها معاً في الميدان الثقافي. وأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر العمل من أجل تأسيس جمعية تهتم بالسينما. وأذكر أننا اجتمعنا لهذا الغرض وكان شريكنا الرفيق كمال كريم بعدد من المخرجين السينمائيين في لبنان وسوريا والعراق أولاً ثمّ في مصر لاحقاً. لكننا لم ننجح في تلك المهمة.

وأود أن أضيف إلى سمات أسامة نبله وخلقه الرفيع اللذين شهدتهما على امتداد علاقة صداقتي العميقة معه حتى آخر حياته. وأذكر في هذا السياق أنني لجأت إليه مرتين لمساعدتي في مهمتين صعبتين. كانت الأولى عندما قررت إعادة إصدار مجلة الطريق في عام ١٩٩٣ بعد أن كانت قد توقفت عن الصدور في العام الخمسين لتأسيسها. ولم يكن لديّ أي مصدر للمال لتأمين ذلك الصدور الذي كان ضرورياً في ذلك الحين. فاستدنت منه مبلغاً أمّن لي صدورها خلال العامين الأولين. ولم يكتف بذلك. بل هو أضاف مساهمات مالية متعددة للاستمرار في إصدار المجلة وإلى جانبه عدد كبير من أمثاله من الناس الرائعين شيوعيين ويساريين من اتجاهات مختلفة. واستعنت به مرة ثانية لمساعدتي بتأمين مبلغ كنت بحاجة إليه لسداد موجبات مالية تعود للضمان الاجتماعي ولأمور أخرى تتعلق بالشركة اللبنانية للنشر والإعلام التي كنت قد شكلتها في مطالع تسعينات القرن الماضي وضمت كل الصحف والمجلات التابعة للحزب ولم يتردد أسامة كعادته. وما أكثر ما دلّ على كرمه وإنسانيته ونبله على امتداد حياته.

ذلك هو أسامة العارف الإنسان. أما أسامة العارف المسرحي فيتمثل بعدد من المسرحيات التي كتب نصوصها وأخرجها له كل من نضال الأشقر ويعقوب الشدراوي. وكان أول تلك المسرحيات مسرحية "إضراب الحرامية" التي كان لها صدى كبير. إذ هو دخل في تلك المسرحية في الواقع التي كانت عليه مؤسسات الدولة. واختار على طريقته أن يعرّف القارئ بذلك الواقع من خلال ما سمّاه إضراب الحرامية. وإذ أشير هنا إلى مسرح أسامة فإنني أقدر وأقيّم جهده المتواصل في الكتابة المسرحية التي اختلفت الآراء حول بعض مسرحياته. وأذكر أنه كان يقرأ لي نصوص

بعض مسرحياته قبل أن يرسلها إلى المسرح. وكنا ندخل في نقاشات حول بعض ما جاء في تلك النصوص. وكنا نتفق ونختلف. لكن تلك النقاشات كانت مع أسامة تضيف إلى سماته سمات أخرى جديدة.

تلك هي شذرات من علاقتي بهؤلاء الرواد الثلاثة من المسرحيين الذين انتموا إلى الحزب الشيوعي. وكانوا أمناء إلى الفكر الاشتراكي في حياتهم الشخصية وفي عملهم المسرحي.